الأزهر

في ذكرى
تأسيس الأزهر الشريف

الجامع الأزهر
في كتابات الرحالة والمستشرقين

أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد
عضو مجمع البحوث الإسلامية - رئيس جامعة الأزهر سابقا

أولا: الجامع الأزهر في كتب الرحّالة:

حينما يشهد للأزهر غير الأزهريين شهادة معاينة، وكذلك المستشرقون تعد الشهادة من هؤلاء من أقوى الأدلة على عظمة مسيرة هذا الجامع - أبقاه الله عامرا بالعلم والطاعة، فهيا بنا لمطالعة ماكتبه العياشي المغربي في كتابه «رحلة العياشي»، وقد وقع وصف زيارته للجامع الأزهر (في الفترة من ١٦٦١م:١٦٦٣م) في الصفحات من ٢٢٧ : ٢٦٨ من الجزء الأول من كتابه الماتع «رحلة العياشي»:

حرصه منذ دخوله القاهرة على قرب المقام من الجامع الأزهر:

يقول: ثم دخلنا إلى القاهرة ضحى، ولم نجد دارا للكراء بقرب الأزهر، مع شدة رغبتنا في ذلك، فطرحنا أمتعتنا بوكالة قايتباي بباب الأزهر الغربي، والظاهر أنه كان يريد دارًا قريبة جدًا، فقد ذكر أنه وجد دارًا واسعة إلا أنها بعيدة عن الأزهر بنحو من أربعمائة خطوة، وذكر أن الجامع الأزهر كان موضع تبرك الناس، فبين أنه في وقت الوباء كان يصلى كل يوم في الجامع الأزهر على نحو من عشرة .

الحركة العلمية في الجامع الأزهر:

ذكر أنه لقي من علماء الجامع الأزهر الشيخ عبد الجواد الطريني وهو فقيه من مدرسي الجامع الأزهرتوفي عام ١٠٧٣هـ ، كما لقي الشيخ الهمام علم الأعلام وشيخ مشايخ الإسلام كما - وصفه - أبا إسحق إبراهيم الميموني (ت ١٠٧٩هـ) وقد أثر الهرم فيما عدا عقله، وأخذت السن من قواه ما ظهر أثره في قوله وفعله، ومع ذلك قد متع بسمعه وبصره، وبنضارة الوجه على كبره، دخلت عليه بعد العصر فوجدته يصحح مع بعض الطلبة تأليفا له في مباحث تتعلق بقوله - تعالى - ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود:١١٧) مع آية أخرى أتى فيها بالعجب العجاب، وهش - رضي الله عنه- للقائنا وبش، وطش بماء المحبة ورش، وبالغ في التحفي والسؤال عن الأحوال.... فهذا نموذج من حفاوة علماء الجامع الأزهر بالغرباء، وقد عزمهم على الإفطار عنده، وباتوا تلك الليلة بالجامع الأزهر؛ لأنها كانت ليلة سبع وعشرين وقد بين العياشي حفاوة عامة الناس بالجامع الأزهر .

وقد وصف لنا مجلس الشيخ المحقق الشيخ عبد السلام بن شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم اللقاني شيخ السادة المالكية في زمانه (ت ١٠٧٨م) وهو يقرئ شرحًا للسيوطي ، وذكر

بعض ما أفاده منه، وكان العياشي ولعا بالبحث في أحوال العلماء مع شدة أدب وحسن لياقة، فقد ذكر أن الشيخ عبد السلام يدرس ثلاثة أشهر فقط في العام رجب وتالييه ، وزار شيخ القراء بالقاهرة، الشيخ سلطان بن سلامة المزاحي المصري (ت ١٠٧٥هـ) وما كان فيه من الشدة في خلقه، ورفض تقبيل يده ممن يريد ذلك، ونهر من يلح عليه في طلب الدعاء منه، وهذا يريك تدقيق العياشي في أحوال المشايخ، وقد بين أن شيخ القراء كان من أهل الحال، كما حضر درس الشيخ موسى القليبي المغربي، كما لقي الشيخ عمر فكرون الفقيه التونسي، وساق كثيرا من اللطائف، واقتباسات مما سمع من المسائل، والظاهر من وصفه أن علماء الأزهر كانوا القبلة العلمية للمسلمين حتى بلاد الحرمين، فقد قال : لما سقط جانب من البيت الحرام في سنة تسع وثلاثين بعد الألف، واحتيج إلى تجديد بنائه، كتب إلى مصر استفتاء في أمور كثيرة تتعلق بالبيت العتيق وانقضاضه، وتجديد ماسقط منه وبنائه من أصله، ومن يتولى بناءه، وبأي مال يبنى... فتصدى شيخنا الميموني للجواب عن ذلك، فألف كتابه «تهنئة الإسلام ببناء بيت الله الحرام»، ... وفرغ من تأليفه سنة أربعين بعد الألف وقال فيه : اللهم إني أتقرب إليك بحرمة بيتك الحرام بهذا الكتاب...إلى أن قال : أن تُيَسّر لي حج بيتك الحرام في هذه السنة، كما كان لعلماء الأزهر صيت ذائع، فقد ذكر العياشي أن الله استجاب دعاء الشيخ الميمون وحج هذا العام، وذكر الشيخ الميمون أن الشيخ اللقاني حج هذا العام ثم قال : ولما قدمنا مكة جاء العلماء إليه يهرعون للسلام عليه، فكان إذا سئل عن شيء مما يتعلق بالبيت أو الحرم قال : بقول لهم : سلوا مولانا هذا ويشير إلي ويقول إن له في ذلك تأليفا عجيبا .

وقد ذكر العياشي أنه لقي كثيرًا من علماء الأزهر، كالشيخ علي الشبراملسي الضرير، والشيخ أبي بكر السجستاني، والشيخ علي الصوفي الساكن بسطح الجامع الأزهر، وغيرهم كثر.

الجامع الأزهر عامر بالعلم وطاعة الله:

ذكر العياشي أن الليالي كلها بالجامع الأزهر كليلة القدر، فهو معمور بالذكر والتلاوة والتعليم آناء الليل وأطراف النهار لا تنقطع منه العبادة ليلا ولا نهارًا صيفًا وشتاء، فهو عديم النظير في مساجد الدنيا بأجمعها، حاشا المساجد الثلاثة لما لها عند الله من أعظم المزايا وأرفعها، وإن خص هو بهذه الفضيلة فغير مستنكر وجود مزية في المفضول ليست في الفاضل، إذ الفضل بوجود التفضيل لابوجود الفضيلة.

وهناك رحالة مسلمون كثر وصفوا الجامع الأزهر منهم :

الرحالة المسلم ابن مليح:

ومن الرحالة العرب المسلمين صاحب «أُنس السارى والسارب من أقطار المغارب إلى

منتهى الآمال والمآرب وسيد الأعاجم والأعارب» (سنة ١٦٣٠ / ١٦٣٣م) لأبى عبدالله محمد بن أحمد القيسى الشهير بالسراج الملقب بابن مليح. في رحلة الحج إلى مكة يذكر أن مصر: «دهليز البلد الحرام وقبالة الباب والمقام»، وأن المغاربة يفضلون الانضمام إلى قافلة الحج المصري؛ لأنها توفر لهم الأمن والأمان والراحة. ووصف القاهرة بقوله: «يا لها من قاهرة ما أحسنها وأبدع جمالها وأوصافها، أوفى البلاد طهرة، وأزكاها فطرة، وأفسحها رقعة»، ويصف النيل بقوله: «هذا البحر أعجب البحور شمائل وأعذبها واردًا وأطيبها نشرًا، فسبحان من خص به مصر»، ولم ينس ابن مليح أن يتحدث عن الدور العلمي والفكري للأزهر الشريف الذي كان ممتدًا إلى كل أنحاء العالم الإسلامي آنذاك. وقد ختم حديثه عن مصر بقوله: «فنسى كل غريب وطنه، وود أن لو فيها يقضي عمره وزمنه».

أوليا جلبي الرحالة التركي والجامع الأزهر:

الرحالة التركي أوليا جلبي الذى بقي مدة ثماني أو تسع سنوات في مصر، حيث أكمل هناك، الجزء العاشر من كتابه سياحتنامه الذي تحدث فيه عن الأزهر ودوره، وذكر أن علماءه يدرسون العلوم العجيبة والغريبة كل يوم وليلة، وفى الأزهر خمسون رواقًا، وتحدث عن مساجد القاهرة التي زارها؛ فأخذت بلبّه، ورأى أنه لا يوجد في زمنه مثلها كثرة وعظمة واتساعًا، يقول: «بمصر ستة وخمسون ومئة جامع بناها السلف من السلاطين، ولم يخلف ملوك وسلاطين بلاد الروم والعرب والعجم، بل بلاد المسلمين قاطبة، جوامع عظيمة بهذا القدر، فكل جامع يُشبه جنة».

وأعظم جوامع مصر كما رآها أوليا جلبي، الجامع الأزهر، فـ«ليس في مصر جامع له ما للأزهر من جماعة؛ إذ هو واقع في عين مصر، فهو مزدحم بالناس ليلا ونهارا، فلا تجد فيه موضعا للسجدة، يجتمع فيه اثنا عشر ألف طالب ليل نهار، وتطن أصواتهم كأصوات النحل، مما يدهش الإنسان، وقد انهمكوا في مباحثات علمية».

وهذه المكانة الكبيرة والمتميزة التي حظي بها الأزهر في مصر العثمانية كما أقر أوليا جلبي لها أسبابها الجوهرية التي تعود إلى أن القاهرة ذاتها قد حظيت بمكانة متميزة داخل الدولة العثمانية باعتبارها أهم مركز ثقافي في المشرق العربي، وقد أسهم اختلاف اللغة عن مركز الخلافة العثمانية في إسطنبول في دعم القاهرة كمركز رئيس للفكر والثقافة العربية، بالإضافة إلى موقع القاهرة الجغرافي الذي كان يستقبل كل عام وفود الحجيج من المغاربة والأفارقة، وقد صار لهؤلاء أروقة مخصصة لهم داخل الجامع الأزهر، وقد تمتعت القاهرة بحرية مذهبية كبيرة اجتذبت إليها الباحثين وطلبة العلم ممن أرادوا التخصص في مذهب أو مذاهب مختلفة، يضاف إلى ذلك التنوع العرقي الذي أقر به جلبي من الأتراك والجراكسة والمغاربة والأفارقة والشوام وغيرهم.

كل هـذه العوامل أدت إلى صعود مكانة الأزهـر في ذلك العصر ، وإلى هذا العدد الكبير من تلاميـذه وطلبتـه ، وإذا أضفنا إلى ذلك قول جلبي نفسـه «إن أوقاف الأزهـر أقوى الأوقاف في القطـر المصـري» وهي الموارد الماليـة التي كانت تدر ريعًا وأرباحًا ثابتـة كل عام وقد أوقفها السلاطين والتجار وأهل الخير ، وكل ذلك مما يكشف عن مكانة الأزهر .

ثانيا : الجامع الأزهر في كتابات الرحالة الأوربيين والمستشرقين:

كان الأزهر الشـريف محط أنظار الأوروبيين ففي سـنة ١٢٣٦ هـ/ ١٨٢٠ م وضع باسكال كوسـت أول رسـم لتخطيط الجامع الأزهر ؛ حيث اسـتطاع التحايل على شـيخ الجامع ودخل الجامـع وألقـى نظرة عامـة عليه من الداخل ، ورسـم بعـض التفاصيل ، وخاصـة تفاصيل باب المزينين ، وفي أواخر عهد محمد علي باشـا في سنة ١٢٥٨ هـ/ ١٨٤٢ م زارت مصر السيدة صوفيـا لين بول أخت المستشـرق إدوارد لين بول . .وسـجلت مشـاهداتها فـي مصر ، ومنها مشاهدتها للجامع الأزهر الذي زارته ، كذلك قدم لنا الرحالة بيرتون الذي زار مصر سنة ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣ م في أواخر عهد عباس حلمي باشـا الأول وصفا للجامع الأزهر والحياة فيه ، وفي سـنة ١٢٧٢ هـ/ ١٨٥٥م نشـر جيرو دي برانجـي تخطيطًا آخر للجامع مـن الداخل وصورة للصحن الغربي ، كما يرصد الكاتلوج الكثير من المحطات التاريخية المهمة في تاريخ الأزهر .

وفـي مقال بعنوان :مستشـرق بريطاني قارن بين الدراسـة في الأزهـر وجامعتي كمبريدج وأوكسـفورد منذ ١٢٥ عامًا ، تعلمنـا من الأزهر أن التعليم حق للمواطـن دون مقابل للكاتب ماجد محمد فتحي يقول فيه :

فـي هـذه الأيام . . . ترتفـع وتيرة تطاول الهـوام على الأزهر الشـريف ، تـارة بحجة تنقيح التـراث وتـارة بحجة تجديد الخطـاب الدينى – رغم أن من يتصدى لمثـل هذه الدعوات لا بد من تضلّعه فى علوم الدين قبل أن يصدر صيحات وحججًا سطحية ليس الغرض منها إلا تشويه مؤسسـة الأزهر ، ورغم أن القارئ والمسـلم البسـيط متيقنٌ فى ضميره من خبث طويّة من وراء هـذه الحمـلات – ربما كان من الأولـى أن نتناول رأيا هادئًا ونظرة موضوعية للأزهر الشـريف ، التـي رغـم إيجازها تحمل الكثيـر والكثير من الإنصـاف والتجرد والنزاهـة والموضوعية ، صـدرت مـن أحد أعمدة الاستشـراق البريطاني ، سـتانلي ليـن بول (١٨٥٤ــ ١٩٣١) بعد الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢م ، قام المستشرق ستانلى لين بول – حفيد شقيقة المستشرق البريطانـى الكبيـر إدوارد ويليام لين ، مؤلف كتاب « المصريـون المُحدثون » – بزيارة لمصر بغـرض تأليف كتاب عن المجتمع المصرى وطبقاته وأهله للقارئ الأوروبي الذى كان شـغوفًا بمصر بسبب أحداث الثورة العرابية والاحتلال البريطاني . وكانت نتيجة هذه الزيارة أن صدر كتابه « الحياة الاجتماعية فى مصر » بلندن عام ١٨٨٣م ، والذي صدرت ترجمته العربية أخيرًا عن مكتبة الآداب بالقاهرة ، مصحوبة بـ ١٣٦ لوحة منقوشـة على الأسـتيل والخشب لمظاهر

الحيـاة فى مصر ، بيد أشـهر فنانى إنجلترا فى تلـك الفترة . تناول لين بول فى الفصل الثالث نظام التعليم لدى المصريين. بدءًا من الكُتّاب حتى الأزهر الشـريف ، وكان فى تناوله للأزهر ومقارنتـه بينه وبيـن جامعتي أكسـفورد وكامبريدج ما يُجبـر المرء على الثنـاء على أحكامه المنصفة . حيث يقول : إذا رغب الطالب فى الحصول على قمة ما فى التعليم المصري، فعليه أن يحضـر الـدروس فى المسـجد الجامع المسـمى « الأزهر » . من الناحيـة النظرية ، يُعد هذا المسـجد مؤسّسـة محترمة؛ فهو مسـجد تحيط بصحنه الكبير المفتوح أرْوقة مسقوفة ، وهي مخصصة للاستعمال المنفصل للطلاب من الأمم المختلفة. فعلى سبيل المثال، إن أحد الأروقة مخصـص لطلبة المغرب، وآخر للطلبة المكّيين، وثالث للشـوام، ورابـع للأتراك ، وهكذا» . يأتى الشـباب المتحمسـون لطلب العلم إلى الأزهر من أقصى بلاد العالم الإسـلامي : من غرب إفريقيا ومن الهند، ومن شـبه جزيرة الملايو، ليتعلّموا علوم الدين الإسـلامي، والنحو، وعلم العَروض، وعلم البيان والبلاغة، وتفسير القرآن، والحديث الشريف، والفقه، وكل ما يختص بالنظام العلمى الإسلامي. يشرح الأساتذة المتعلمون هذه العلوم وفق مناهج المذاهب السنيّة الأربعة للإسـلام لمجموعات متحمسـة من الطلبة يجلسون أمامهم على الأرض فى شبه دائرة، تمامًـا مثـل الطلبـة الصغار فـى الكتّـاب ، ويتمايلون للأمـام والخلف عندمـا يحفظون بعض الجُمَـل المهمة، أو بعض الأمثلة الأساسـية للبلاغة العربيـة وفضائل علم العَروض، تماما كما كانـوا يتمايلـون من قبل عند تلاوتهم القرآن أمام معلّمهم الكهل سـريع الغضب فى الكتّاب. لكن وإن كانت الرسـوم المقدمة للمعلم فى الكتاتيـب المصرية زهيدة، فإن التعلم فى الأزهر مجاني تماما.

وأعظـم الرجـال المتعلمين في مصر، وكذلك في البلاد المحيطـة بمصر، يجيئون إلى هنا ليدرّسـوا حصيلة علمهم دون مقابل. يتسلم الطلبة يوميًا كميات من الطعام تمدّهم بها المِنحُ الخاصة بالأروقة المنتسـبين إليها، وهذه المنح مصدرها أوقـاف الناس الأتقياء الذين يرغبون في سـلوك طريقهم الخاص إلى الجنة. ونظرا لأن هؤلاء الطلبة الجادّين – السائرين على طريق العلـم والمعرفة – شـديدو الفقر، فهم يزيدون من موارد أرزاقهـم بقدر ضئيل عن طريق إعطاء دروس مخصوصة ونَسْـخ المخطوطات . وبالأسـاليب ذاتها ، وبتلاوة القرآن فى الاحتفالات، فإن الأساتذة الذين كرّسوا حياتهم لإلقاء الدروس فى الأزهر يدبرون وسيلة معيشتهم وأرزاقهم. فبعد مرور بعض السنوات من التدريس بالأزهر، غالبًا ما يصبحون قضاة شرعيين، أو مُفتين، أو أئمةَ مساجد، أو مدرسين، لكن بعضهم يظلون طيلة حياتهم «مشايخ» أو «علماء» في الأزهر، وينالون الشرف المأمول بأن ينضموا إلى الجامع الأزهر.

ثم يتناول سـتانلي لين بول الأزهر ويقارن بينه وبين جامعتي أكسـفورد وكمبريدج ، وبين طلبته والطلبة البريطانيين قائلًا : فى الحقيقة، يعدّ الأزهر جامعة الإسلام. ويُرَى تأثيره فى أي

مكان يُعتنق فيه الإسلام على الإطلاق، ويتجمع طلبته من كل أجزاء العالم الإسلامي. إذ نرى فيه شيئًا من الحماسة القديمة والبحث المحض عن العلم والحكمة التي ميزت جامعات أوروبا في القرن الثاني عشر العظيم، عندما خرّجت علماء، لا نبلاءَ الدول، وأعدّت الرجالَ لحياة جادة للدراسة، وليس للحصول على لقب اللوردات والانتساب لنادى مورتليك الأرستقراطي البريطاني.

يُعد نظام التعليم بالأزهر مثاليًا جدًا، فالشباب الفقير الذين يجيئون إليه يرحّب بهم على الفور، ويتعلّمون كل ما يعرفه الأساتذة، وهذا ما يرادف معنى التعليم الإسلامي، ويتلقى الطالب أعلى تعليم يمكن أن يتلقاه المسلم، بالطرق الإسلامية، دون الحاجة إلى دفع قرش واحد.

وعندما نقف وسط حشود الطلبة، الذين يعج الأزهر بعشرة آلاف منهم كل عام، لا نستطيع عند مقارنة الغاية من هذه الجامعة الإسلامية وجامعتي أوكسفورد وكامبريدج البريطانيتين، إلا أن نستشعر الخجل ونتعجب أنه مع كل تقدُّمنا الذى نفتخر به، لا نزال حتى الآن متخلفين عن عِرق أجنبي غير متقدم بالنسبة إلينا، حيث لم نكتشف بعد أن التعليم حقٌّ طبيعي لكل مواطن، وأن الدولة يجب أن توفر ذلك التعليم دون مقابل مادي أو ثمن لكل فرد من أفرادها مثل مؤسسة الأزهر. وبدلًا من رسوم الكلية، ورسوم الجامعة، وضرائب المعارك الحربية، ورسوم الخدم، ورسوم المحاضرات، ورسوم الأساتذة الجامعيين، ورسوم الامتحانات، ورسوم الدرجات العلمية، فإن الطلبة الدارسين بالأزهر يتسلمون - إلى حدٍّ ما - الوجبات الغذائية مجانًا، ويتعلمون بلا مقابل، ويتسلمون إجازة «ليسانس» عن تفوقهم وبراعتهم كمدرّسين وطلاب. وبدلًا من حفلات الخمور و عشاء «شُرب الأنخاب» التى تجرى في جامعات بريطانيا، فإن طلبة الأزهر يتجمعون معا على كسرة من الخبز وزجاجة من الماء ليتناقشوا فى مسائل النحو وتفسير القرآن، ويصابون بالصداع من إعمال الفكر وليس من الشرب حتى الثُّمالة

وبدلا من مضايقة آبائهم بدفع فواتير خياطة وتفصيل ملابسهم، واشتراكات نادى اليخوت ونادي الكروكيه وكل النوادى الأخرى، فإن طلبة الأزهر يدبرون مصاريف معيشتهم المقتصدة بأنفسهم. إن أية مقارنة بين الطرفين ستكون في صالح جامع الأزهر بالقاهرة، ما دام « المبدأ » هو أساس المقارنة، ورغم أن الحقيقة المؤسفة هي أن المواد التي يتعلمها الطلاب في الأزهر قد تُعدّ أقل إفادة في حياتهم بعد ذلك - مثل فن التفعيلات السداسي في علم العروض والقوافي - فإنها لا تنتقص من جمال ذلك النظام التعليمي، انتهى هنا كلام المستشرق البريطاني.

ربما ستظل هذه الشهادة «الغربية» للمستشرق المنصف لين بول التى كتبها تشعرنا بالخجل حين نقارن حالنا زمان والآن ونشاهد من يعادون الأزهر حاليًا مفتونين بهذا «الغرب» - نبراسا للتفرقة بين الحُكم المستنير والشهادة النزيهة على الأشياء.

غربيون ومستشرقون درسوا في الأزهر:

بعض الغربيين تشرفوا بالدراسة في الأزهر، والنهل من علومه، والانتفاع بمنهجه، ذكرهم المرحوم د/ عبد الرحمن بدوي في موسوعة المستشرقين، والأستاذ نجيب العقيقي في كتابه (المستشرقون) والمرحوم أ.د/ محمد رجب البيومي في كتابه النهضة الإسلامية في سير أعلامها من هؤلاء:

١ـ المستشرق الإنجليزي الكبير إدوارد وليم لين والذي زار مصر لأول مرة ومكث بها ثلاث سنوات، درس في الأزهر الشريف على طائفة من علمائه علوم اللغة والشريعة، ثم أسلم وغير اسمه إلى منصور أفندي، ثم زار مصر مرة أخرى، ومكث بها سبع سنوات، وترجم كتاب (ألف ليلة وليلة)، ووضع قاموسًا شهيرًا للعربية والإنجليزية، اعتمد في وضعه على طريقة الفيروزآبادي في كتابه (القاموس المحيط) وعلى كتاب (تاج العروس) للزبيدي، وكلاهما من أهم قواميس اللغة العربية، وهذا يدل على تضلع الرجل من علوم العربية والشريعة التي كان الفضل في ذلك لدراسته في الأزهر الشريف.

٢ـ لويس ماسينيون: هذا المستشرق الفرنسي، الذي قال عنه الدكتور عبد الرحمن بدوي في موسوعة المستشرقين: (مستشرق فرنسي عظيم، وهو بين المستشرقين في مكانة لا يضارعه فيها إلا (نيلدكه) و(نلينو) و(جولدتسيهر). وقال عنه: «جاء مصر سنة ١٩٠٩م، وحضر دروسا في الأزهر، وكان يلبس الزي الأزهري، كما فعل جولدتسيهر من قبل عندما كان يدرس في الأزهر سنة ١٨٧٣م-١٨٧٤م. ولما طلب إلى جولدتسيهر وأسنوك هورخرونية القيام بالتدريس في الجامعة المصرية القديمة التي أنشئت سنة ١٩١٠م، اعتذرا وأوصيا بالأستاذ ماسينيون لهذا المنصب، فدعي وألقى أربعين محاضرة باللغة العربية على طلاب الجامعة المصرية القديمة وكان منهم الدكتور طه حسين. وله عدة مؤلفات مهمة في التصوف الإسلامي، والفلسفة الإسلامية، وتوفي سنة ١٩٦٢م. حاشية انظر: موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بدوي ص: ٥٢٩-٥٣٥.

٣ـ عبد الكريم جرمانوس: وهو مستشرق مجري من أعلام المستشرقين الكبار في القرن العشرين، نشأ مسيحيًا، ثم درس الأديان، وأسلم، وأتقن عددًا من اللغات وهي: المجرية، والإنجليزية، والتركية، والعربية، والألمانية، والفرنسية. وقد جاء إلى مصر ليدرس اللغة العربية والإسلام بالأزهر الشريف، وهو ما تم فعلا، ورغم كبر سنه على التعليم آنذاك فقد صمد وصبر، حتى خالط كبار علماء الأزهر، وتعلم على أيديهم، ومن أبرزهم: محمد عبد اللطيف دراز، وعلي سرور الزنكلوني، ومحمد أحمد عرفة، ومحمد بخيت المطيعي. وأصبح عضوًا مراسلًا لمجمع اللغة العربية بمصر، وبالمجامع العلمية الأخرى في الشرق العربي كمجمع دمشق، وبغداد. ومن أراد استزادة عنه، وعن مؤلفاته التي ناهزت الثلاثين

كتابًا مهما في الفكر الإسلامي واللغات، فليقرأ كتاب المستشرقون لنجيب العقيقي (٣ / ٨١٣-٩١٠). وكتاب النهضة الإسلامية في سير أعلامها لمحمد رجب البيومي (٢ / ٤١٩-٤٣٧).

٤ـ المستشرقة الفرنسية إيفا دوفيتري ميروفيتش، وقد سافرت عام ١٩٧٠م من باريس إلى مصر، ودرست في جامعتي الأزهر وعين شمس، ودرست العلوم الإسلامية واللغة الفارسية، وتخصصت بعض دراساتها في التصوف، وتوطدت علاقتها بشيخ الأزهر الشيخ محمد الفحام، والدكتور عبد العزيز كامل وزير الأوقاف السابق. وأصبحت عضوًا بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وظلت تكتب بصفة مستمرة مقالات عن الإسلام باللغة الفرنسية في مجلة (منبر الإسلام). وللوقوف على المزيد من تاريخها: انظر مقال (إيفا دفيتري ميروفيتش: الفرنسية التي سارت على درب الرومي) لخالد محمد عبده.

كتب عن الأزهر:

د / بيارد ودج وكتابه: الأزهر في ألف عام: ترجمة د / حسين فوزي النجار.

ذكر أنه كتب هذا الكتاب في أثناء عمله بالجامعة الأمريكية بمصر، وجعل الكتاب ثمانية فصول بدأها بالحديث عن الأزهر والفواطم، وقد تتبع في الكتاب الحركة العلمية في الأزهر منذ نشأته، وقد أكد أن الأزهر لم يهجر في عهد الدولة الأيوبية، بل إن مئذنته رفعت أطول مما كانت عليه، وذكر العلوم التي كانت تدرس بالأزهر وأورد أن عبد اللطيف البغدادي كان يدرس في المعاهد العلمية التي أنشأها صلاح الدين نهارًا، ويدرس في الأزهر ليلًا، وكان يتقاضى على ذلك ثلاثين دينارًا من صلاح الدين، ثم وصف الأزهر في عهد المماليك وأنه كان المكان الأثير لإقامة الشعائر، والعلم، وذكر عناية الحكام بعمارة الجامع الأزهر، وقد بين أنه كلما اجتاح الوباء مصر هرع الناس إلى الأزهر ينشدون النجاة والأمان، ثم وصف الجامع الأزهر عمارة ومنارة علم في عهد الدولة العثمانية، وبين أن عهد الدولة العثمانية شهد تعيين أول شيخ يحمل لقب شيخ الأزهر، وقد نقل عن سير هاملتون جب وبوين أن الأزهر في هذا العهد كان حافلًا بطلاب العلم من كافة البلدان الإسلامية لا من مصر وحدها، ولم يكن من أبناء مصر من يطلب العلم بالخارج، وقد عمره العثمانيون ووسعوه، وأنشئت الأروقة السكنية للطلاب وكان لكل رواق نقيب ونائب من الطلاب ومكتبة وعمال وخدم، ووصف التدريس والتعليم والعلوم التي كانت تدرس آنذاك، وفي الفصل الخامس وصف الأزهر في العصر الحديث وعبث الحملة الفرنسية بالجامع، وفي الفصل السادس رصد التجديد والإصلاح في الأزهر، ورصد سلسلة القوانين التي تنظم الأزهر والعمل به، وجهود الإمام محمد عبده، وظل يصف حتى صار التعليم نظاميًا مرتبطًا بسنوات، ومراحل، وتحديد كتب ونظام امتحانات، ورصد التطوير حتى تحول الجامع إلى جامعة، وذكر كثيرًا من الأعلام الذين تخرجوا في الأزهر من الصين والملايو وغيرهم وبين أنهم فخر للأزهر.

فرنسين كوستيه وكتابه : إصلاحي في جامعة الأزهر ترجمة عاصم عبد ربه حسين:

عرض فيه أعمال الشيخ مصطفى المراغي وفكره الذي عاش (١٨٨١م: ١٩٤٥م) استعرض في الباب الثاني الأزهر في القرن العشرين وقد رصد الاعتراف بالشهادات الأزهرية، وإدخال دراسة اللغات الأجنبية، وتعديل برامج التعليم لمواكبة الحياة، وإرسال طلاب الأزهر إلى الجامعات الأوربية، ورفع رواتب العلماء الحاصلين على شهادة العالمية، وغير ذلك ورصد التطور والإصلاح في عهد الشيخ المراغي الأول وعهد الشيخ الظواهري والشيخ الجيزاوي، وإصرار المراغي على الإصلاح، وتحدث بعد ذلك عن الفترة الثانية للشيخ المراغي وما كان فيها من إصلاح، والكتاب باختصار وصف لجهود الشيخ المراغي في إصلاح الأزهر الشريف في فترتي توليه المشيخة.

وفي مقال بعنوان: «جولدتسيهر».. مستشرق يهودي أنصف الإسلام وخالط فقهاء الشام وعلماء الأزهر، للكاتب محمد فتحي منشور على الشبكة العنكبوتية قال فيه:

على خلاف الصورة النمطية المأخوذة عن المستشرقين وموقف بعضهم العدائي من المسلمين والشرق بصفة عامة، كان إيجناس جولدتسيهر أحد المستشرقين المنصفين الذى أشاد بالإسلام فى يومياته الشرقية، كما أنه أظهر كراهيته للأوروبيين في كتاب وصلت عدد صفحاته إلى ٢٦٥ ورقة من القطع المتوسط، قدم المؤلف والمترجم الدكتور عونى عبد الرءوف ترجمة لما جاء فى يوميات هذا المستشرق التى كتب فيها عن الفترة التى أمضاها بالشرق، وزار فيها سوريا ومصر مرورا بتركيا فى عامى «١٨٧٣-١٨٧٤م» حيث تولى رفائيل باتاي ترجمتها إلى الإنجليزية عن مخطوطة بالألمانية بخط «جولد تسيهر» ونشرها عام ١٩٨٧م بالولايات المتحدة الأمريكية. وأشار المؤلف إلى أن هذه اليوميات لم يكن يعيبها سوى أنها لم تكتمل، إذ إنها انتهت فى يوم ١٤ يناير ١٨٧٤م، رغم أن جولدتسيهر بقي بمصر إلى أبريل ١٨٧٤م، لافتا فى الوقت نفسه أنه لم يتمكن من الترجمة المباشرة من النص الألمانى، حيث لم تتم طباعتها مثلما كان الحال مع اليوميات التى حظيت بالطباعة الكاملة. ولفت عبدالرءوف عوني، إلى أن جولدتسيهر توسع في إشادته بالإسلام مما أدى إلى احتقار الغربيين وازدرائهم له طوال حياته، حيث لاقى سخرية ممن يشاركونه الديانة اليهودية أو ممن يعتنقون الديانة المسيحية سواء في وطنه النمسا أو ألمانيا عدا بعض أساتذته وزملاء المهنة الذين يشتغلون بالاستشراق وكانوا يقدرونه، وقال: إن جولدتسيهر كان يكرر دائمًا أنه أحب الإسلام لإيمانه بالتوحيد مثل اليهودية، وقد صرح بأنه يعتبر التوحيد لفظة مرادفة للإسلام «فالتوحيد عنده هو الإسلام». وفي أحد فصول الكتاب أشارت الدكتورة كرمة سامي الموكل إليها تقديم تلخيص للدراسة التي قدمها رفائيل باتاي بعنوان «إيجناس جولدتسيهر شيخ الإسلاميات .. جمال الأصل وقبح الصورة» لتكون مقدمة ليوميات جولدتسيهر بالمشرق،

إلى أن الدراسة الغرض منها النيل من جولدتسيهر وتشويه صورته على هوى وأقاويل وحكايات مرسلة، لافتة أن باتاي، كاتب مجري المولد أمريكي الجنسية له عقلية أكاديمية فريدة صاحبة إنجـازات، ولكن من ناحية أخرى قد يكون دجالاً مغرضًا، ووصفته بأنه هو الصهيوني المزمن الذي تلقى تعليمه في بودابست وألمانيا ثم هاجر إلى إسرائيل لاجئا، وأكدت أن باتاي اعتمد في كتابه على منهج به الكثير من التعميمات التي تستند إلى القليل من الحقائق كما يدعي أن مصادره تتشـكل من وثائق حقيقية. وقالت: إن باتايي الكاتب اليهودي سخر من طبائع جولد تسـيهر الشـخصية وسماته النفسية، واستند إلى روايات عن سـوء طبع المستشرق المنصف للإسـلام، إحداها عندما كان يعمل أمين سر الطائفة اليهودية في بودابست وفيما كان يعكف علـى أبحاثه العلمية في مكتبه، إذ دخل عليه رئيس الطائفة وطلب منه أن يناقشـه في موضوع رسـمي فقاطعه جولدتسـيهر «ليس الآن، ألا ترى أني مشغول». وأشـارت محققة الدراسة إلى أن باتاي خرج عن السـياق فيما هو كامن في قلبه، لافتة أن نار النقد فتحت على جولدتسـيهر لأنه كرس حياته لدراسـة الإسلاميات بدلا من اليهوديات وأنه اتخذ من اليهودية ديانة وليست الصهيونية. وعن الفترة التى عاشها جولدتسيهر بالقاهرة قال: «ما نعمت به من سعادة لم أحظ بمثلها قط»، ووصف الإسـماعيلية بالمدينة المصرية الجميلة حسنة التخطيط، وأشار إلى أن السـيد صالح مجدى بك – أحد تلاميذ رفاعة الطهطاوي- يعد من مثقفي المجتمع الإسـلامي الذى لا يعتبر الحياة الثقافية والوطنية أمورا تحتاج إلى الإصلاح وإنما كانوا يتطلعون إلى إعادة التفكير في بناء العلاقات الوطنية العربية الإسـلامية على أسـس وطيـدة. وفى الفصل الأخير للكتاب «الملاحق ..دراسـات وتعليقات» استعرض المؤلف حياة المستشرق المجري الأصل اليهودي الديانة ومراحل دراسـته وتعلمه التلمود ثم دراسته اللغة العربية وآدابها، ورحلته إلى الشـرق ومجالسته للعديد من العلماء ورجال الدين، وأورد المؤلف أيضا آراء الدارسين العرب والمستشـرقين حول مؤلفات جولدتسـيهر، حيث أكد عبدالرحمن بدوي فى كتابه «موسوعة المستشرقين» أن جولدتسيهر يختلف اختلافا بينا عن الغالبية من كبار المستشرقين في القرن العشرين سواء فى مادة البحث أو في منهجه هذه كلمة موجزة وصف فيها الرحّالة المسلمون، الجامع الأزهر، مكانا ومكانة، وهم شهود عيان، والمستشرقون وصفوا مارأوا، ومنهم شهود عيان ودارسون في الأزهر أبقى الله مصر والأزهر.

الأزهر الشريف مَلاذُ الأمَّة

د/ محمد محمود الجُبَّة
مدرس اللغويات بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمياط

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد ..

فإن الأزهرَ الشريفَ [1] هو الحصنُ الذي انتهت إليه مواريثُ النبوَّة ، واستقرَّت فيه أمانةُ السلف الصالح ، واستعصمتْ به لغة القرآن الكريم ، حتى غدت أرضُهُ حَرَمًا ، وجنابُهُ حمى ، وقولُهُ في الأمور فصلًا ليس بالهزل ، وقد غدا عبر الزمان حصنَ العقيدة ، ولسانَ الشريعة ، ومَظْهرَ الحقيقة .

قدَّر الله للأزهر الشريف أن يكون كعبةَ العلماء ، ومرجعَ الفقهاء ، وقبلة للمسلمين في العلوم والمعارف ، كما قدَّر الله للكعبة المشرفة أن تكون قبلة للمصلي والطائف ، وهيَّأ الله له بقعة مُباركة تتوسَّطُ العالم ، وعُلماءَ أُمناءَ على الشرع يذبُّون عن نُصوص الوحيين الشريفين ذَبَّ اللّيوث ، ويجودون على الأسماع بما ينفع الناسَ في أمر دينهم ودنياهم منها جُودَ الغُيوث .

فاضْطَلعَ بحمل أمانة العلم بسنده الموصول بصاحب النور المحمدي ﷺ ، وصار مصنعًا فَريدًا يُصنع فيه العلماء في كلِّ فَنٍّ ، عن طريق منهج دقيق مُحكَم نسَجَهُ عبر قرون ، شاركت فيه عقولُ الأمَّة جمعاء ، عن طريق عُلماء الأرض الذين زاروه ، ودرَّسوا فيه ، وطُلَّابه الذين قصدوه من أقصى الأرض إلى أدناها وحَطُّوا رحالَهم فيه ، ليجمعهم على هؤلاء العلماء الذين يُورِّثونهم العلم كما ورثوه عن أشياخهم ، فيتصل بذلك إسناد الطبقة من طلاب العلم بطبقة شيوخهم ، إلى رسول الله ﷺ ، وهيَّأ لهم أماكن لإقامتهم ، وأجرى عليهم من المال والطعام والمأوى ما يُعينهم على تحصيل العلم في أماكن تُسَمَّى الأروقة .

فاجتمعت علومٌ وخبراتٌ ومهاراتٌ ، وتجاربُ بشريةٌ تطبيقية ممتدةٌ ، صِيغَ منها هذا المنهج الذي يُناسِبُ الأمَّةَ جمعاءَ ، من غير شطط أو تقصير .

فيخرج طلابُ الأزهر وقد حقَّقوا الغايةَ من إنشاء هذا المصنع الذي يُصنع فيه العلماء ، فيخرجون وقد حفظوا نصوصَ الوحيين الشريفين ، وتعلَّموا مفاتيحَ فهمها ، وصَقَلَ فيهم ذلاقةَ اللسان ، وقوةَ الجَنان ، والصلابةَ في الدين ، والمهابةَ عند الناس ، والبراعة في العلم ، حفظًا وضبطًا ، ثم إتقانًا وبيانًا ، وفهمًا ودراية ، ثم أداء ورواية .

---

(١) الجامع الأزهر أول مسجد أُسِّس بقاهرة المعز، أنشأه القائد جوهر الكاتب الصقلي، وشرع في بنائه سنة ٣٥٩هـ، وكَمُلَ بناؤه سنة ٣٦١هـ، واستمرت خطبة الجمعة فيه إلى زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي، حيثُ قلَّد وظيفة القضاء لقاضي القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس، فعمل بمقتضى مذهبه، وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة في بلد واحد كما هو مذهب الإمام الشافعيّ، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر وأقرّ الخطبة بالجامع الحاكميّ من أجل أنه أوسع، فلم يزل الجامع الأزهر مُعَطَّلا من إقامة الجمعة فيه مائة عام إلى أن أعيدت الخطبة في أيام الملك الظاهر بيبرس. (انظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي ٤/ ٥١، ٥٥، ٥٦).

فيظهـر منتجُهم للعالمين منتجًا علميّا فائق الجودة، يأتيه رُوَّادُهُ من مختلف الأقطار رغم وجود مـدارس علميـة كبيرة في المشـرق والمغـرب، وأربطة ومحاضر كبـرى في بلاد الشـام والعراق والحجـاز والديار اليمنيـة وأرخبيل الملايو والهنـد وأفريقيا والمغرب الأقصى تقـوم بما يقوم به الأزهر الشريف، وتنهض بالعلوم والمعارف كما ينهض به، وتحافظ على اللغة والدين كما يُحافظُ عليها، إلا أنَّها لم تقوَ على مواجهة عوادي الزمن، ولم تستطع الصمود في وجه أعداء هذا المنهج.

لـذا كان أوَّلُ مـا ينبغي أن يُقَدَّرَ للأزهر الشـريف هـو أنَّ اللغةَ العربيةَ وجـدت فيه مَعقلًا تأوي إليـه في عصورٍ كانت اللغةُ التركيةُ هي لغـةَ حكام مصر، ثم وليتها اللغة الإنجليزية لغة المحتلِّ، ثم اللغة الفرنسـية لغة المسـتعمِر، وأنَّ هذه الدروسَ التي ظلَّت قائمة في الأزهر حول علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغةٍ مكّنت اللغةَ العربيةَ من أن تسـتمرَّ لغةَ علمٍ وثقافةٍ إلى أن أدركها العصرُ الحديثُ بنهضته.

وأمـرٌ ثـان: وهو أنَّ الأزهر الشـريفَ ظلَّ مُلتَقـى لطلاب العلم من المسـلمين في أقطار الأرض جميعًـا، فحقَّـقَ نوعًا من التماسـك بين أطراف العالم الإسـلاميَ، وحمى الإسـلامَ مـن كثيرٍ من الخُرافات التي كانت نفوسُ الجماهير الإسلامية مهيَّأة لها بسبب التخلُّف والجهالة الغاشية.

وأمرٌ ثالثٌ: وهو أنَّه يسَّـر للنهضة الحديثـة، بما كانَ فيه من جدٍّ في التحصيل، وتقديرٍ للعلم أعـدادا غير قليلة من الرجـال الذين اعتمدت عليهم النهضةُ الحديثةُ، فقاموا بأعباءَ جسـيمةٍ في ميادين الثقافة والسياسة والتمدُّن في كافَّة أنحاء المعمورة (٢).

وقـدَّر الله للأزهر الشـريف البقاءَ على منهجه القويم- رغم تلاحُـق الأعصار بما فيها- يُحافظ عليه ويُنافح عنه، واسـتطاع أن يصهـر ثقافات الأمة وعقولها وأمزجتها وطبائعها وألسُـنَها التي اجتمعـت فيه من مشـارق الأرض ومغاربها فـي بوتقة واحدة، ونجح فـي أن يفيض على أصحابها منهجًا واحدًا يناسـبهم جميعًا في تحصيل العلـوم والمعارف، ليرجع الواحد منهم إلى قُطره وقد اسـتنار بنـور العلم عقلـه وقلبه، وتجافى عن مضاجـع الجهل جنبه، ليتولى القضـاء أو الإفتاء أو التدريـس أو الخطابـة، أو الولايـة العامة، فتلمس الأمم والشـعوب منهم الأثـر الحميد، والرأي السديد، والحكمة العالية، وتنظر إلى علمائه ورجاله على أنهم دعاة الفضيلة، وحماة الشريعة، فتحصـل الثقة من تلك الأمم والشـعوب في الجامع الأزهر، فتقذف إلى الأزهر الشـريف بفلذات أكبادها وهي مطمئنة، فغدا في سماء العلم هو الأوحد، الذي شهرة فضله لا تُجحَد، وأصبحَ القمرَ الأزهر، والنيِّرَ الأظهر، وواسطة العقْد الأنفَس، ونتيجة المجد الأقْعَس.

وقد أقيمت بالأزهر الشـريف منـذ عهد العزيز بالله الفاطمي حلقاتٌ علميَّةٌ بإشـارةٍ من وزيره يعقـوب بن كِلِّس، وكان عددُ طلاب أوَّل حلقةٍ سـبعة وثلاثيـن طالبًا، بنى لهم بيتًا بجوار الأزهر،

(٢) انظر الأمور الثلاثة في: أثر الأزهر في الحياة الثقافية، للدكتور عبد العزيز الأهواني، نشرته مجلة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في عددها الأول عام ١٩٧٣م: ص٤٩.

وكان يعدُّ أولَ إسكانٍ جامعيٍّ في العالم، وكان أساسًا للأروقة التي بُنيَتْ بعد ذلك، حيثُ توسَّعوا فيها لتُواكبَ الأعدادَ الغفيرةَ التي جاءت من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ للدراسة المَجَّانيَّة التي أنعم بها العزيزُ باللهِ على طُلاب الأزهر، حيثُ أوقفَ أطيانا وعقاراتٍ تُدرُّ دخلا سنويّا وشهريّا يُنفقُ من ريعه على طعامهم وكسوتهم وكافَّة شئون حياتهم اليومية.

وقد كان مقرَّرا لهؤلاء الطُّلَّاب في كل يوم طعامٌ ساخنٌ من مطبخ الأزهر يتكوَّنُ من الأُرز الأبيض بالسَّمن البلدي، واللحم الجاموسي بالشوربة الساخنة في الغَداء، بالإضافة إلى الجراية اليومية، وهي ثلاثة أرغفة من الخبز القُرصة الجيِّد العلامة (الدقيق الفاخر)، وشرطه أن يكون كامل الاستدارة كامل السِّواء، ليس به لُبابة، رغيفٌ للفطور، وآخرُ مع الغَداء، وثالثٌ مع العشاء، مع شوربة القمح أو العَدَس في الفطور، والجُبن والحلوى في العشاء، وللشيخ ضعفُ ما للطالب، فيحوز ستة أرغفة، وهناك مخصَّصاتٌ أخرى من سُكَّر وقهوة شهريّا، بالإضافة إلى الجامُكيَّة[٣] وهي الراتبُ الشهريُّ الذي يتقاضاه الطالبُ والشيخُ من الأزهر، فيتكفَّلُ الأزهر برعايتهم وخدمتهم ومساعدتهم، حيثُ جاءوا من بلادٍ وقارَّاتٍ بعيدة لطلب العلم وحمل مشعل الهداية.

علاوة على ذلك تكفَّل الأزهرُ بصرف كسوتين لكل طالب، كسوةٍ شتويَّةٍ من الملابس الصُّوفية الدَّاكنة التي تجلب الحرارةَ والدفءَ في زمهرير الشتاء، وكسوةٍ صَيفيَّةٍ من الملابس البيضاء التي تعكسُ حرارةَ الشمس وتُخفِّف من قَيْظ الصيف، فالطالبُ والشيخُ كلاهما - بهذه الصورة - موظَّفان بالأزهر، وظيفة الأوَّل طلب العلم، والثاني شيخُهُ، بشرط ألا يحترفَ أحدُهما حرفة أخرى، فإذا احترف أحدُهما حرفة أخرى قُطعت عنه الجراياتُ والمخصَّصاتُ الأُخرى[٤].

وبمجرَّد دخول الطالب إلى الأزهر كان على شيخ الأزهر أن يقوم بقيده بإحدى المؤسَّسات الوقفيَّة التي كانت تزوِّده بجراياتٍ أو مرتَّبات صغيرة أو بكليهما، كما كان توفيرُ مكانٍ لسكن الطُّلاب الوافدين إلى الأزهر من مصر أو من خارجها مسألة مهمَّة بالنسبة لشيخ الأزهر ولمشايخ الأروقة، فتُشير الوثائق الرسمية إلى أنه من مهام شيخ الأزهر: ألا يسكن طالبٌ في أحد أروقة الأزهر أكثر من عام، وكان الهدف من ذلك هو توفير فرصة للوافدين الجُدُد للسَّكن بلا مقابل ريثما يستطيعون توفِّير أماكن للسكن[٥].

---

(٣) الجامُكيَّة: لفظ فارسيٌّ مُعَرَّب، وهي ما يرتَّب في الأوقات لأصحاب الوظائف، كالعطاء السنوي، والجامُكيةُ شهرية. (انظر: التعريفات الفقهية ص٦٨، ومعجم لغة الفقهاء ص١٥٨).

(٤) انظر: الرحلة العلمية للطالب الإندونيسي إلى رواق الجاوة بالأزهر الشريف في القاهرة، للأستاذ الدكتور/ مجاهد توفيق الجندي الأزهري، بحث مقدم لمؤتمر الموروث الشعبي بين مصر وإندونيسيا المنعقد في جامعة قناة السويس في الفترة من ٢٠/٢- ٢٠١٧/٢/٢٢م، نشرته مجلة الاستواء ٢٠١٧م: ص٥٦٦- ٥٦٧، والرحلة العلمية الصينية إلى رواق الصين بالأزهر الشريف في ثلاثينيات القرن الماضي، لأستاذ الدكتور مجاهد توفيق الجندي الأزهري، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع حول العلاقات العربية الصينية التاريخ والحضارة، بكلية الآداب - جامعة قناة السويس - مارس ٢٠١٢م: ص٤٣٧- ٤٣٨.

(٥) انظر: شيخ الجامع الأزهر في العصر العثماني ص٥٦- ٥٧، وراجع سجلات محكمة الباب العالي س١٥، م٥٨٦ (٩٦٢هـ- ١٥٥٤م): ١٠٦.

وقد انتشرت حول الجامع الأزهر الوكالاتُ والرباعُ والبيوتُ، حيث تحوَّلت المنطقة المحيطة بالأزهر إلى (مدينةٍ جامعيَّةٍ) حيٍّ خاص بالمعلِّمين والمتعلِّمين في الأزهر، فهناك دَرْبٌ للأتراك، ودَرْبٌ للمغاربة وغيرهما، ولم يكن يُسمَح للمُقتدرين بالإقامة في غُرَف الأروقة، بل كان يسكن بها الأشد فقرًا، فإذا جاء طُلابٌ فُقراءُ ولم يجدوا لهم أماكنَ للسكن بالأروقة كان عليهم السكن في بعض التكايا، مثل: التكيَّة السليمانية، أو تكيَّة إسكندر باشا، أو تكية محمد بك أبي الدهب لحين فراغ مكان لهم بالرواق، أو في الرباع والوكالات التجاريَّة القريبة من الأزهر، فيما كان يمكن لمتوسِّطي الحال أو المستورين الإقامة في أحد الدُّروب المجاورة مباشرة للأزهر [٦]، وكان شيخُ الأزهر أو من ينوبُ عنه يقوم بشكلٍ دوريٍّ بتفقُّد الغُرَف وأماكن سُكنى الطلاب في الأزهر، فإذا وجد أن أحدَ الطلاب قد ترك غُرفَتَه وسكن في مكانٍ آخرَ فإنه يطلب منه إخلاءَ احتياجاته منها ومغادرتها من أجل إسكان أحد الطلاب مكانه، وتُشيرُ إحدى الوثائق إلى قيام شيخ الأزهر عُثمان الفُتُوحي الحنبلي [٧] بإلزام أحد الطلاب بترك غرفته بعد أن تركها مغلقة دون أن يسكن بها، وألزمه أمام القاضي بذلك [٨].

قال الرَّحالةُ التُّركي (أوليا جَلَبي): «والأماكنُ المخصَّصةُ لإلقاء الدروس في أَواوين الأزهر تُسَمَّى بالأروِقَة، ففي جوانبه الأربعة خمسون رواقا، أي أماكن أقوام من خمسين بلدا، والحقُّ أنَّ كلَّ رُواقٍ من تلك الأروقة حافلٌ بعلماء المسلمين، بحيث إنَّ سُكَّانَ أَيِّ رواقٍ لا يعرفون عن سُكَّان أيِّ رواقٍ آخرَ لُغَتَهُمْ ولا سائرَ أحوالِهِمْ، فكُلٌّ مشغولٌ بعمَله، وإذا حضرت الصلاةُ - والعَظَمَةُ لله - فكأنه يومُ الحَشْر، يَحملُ كُلٌّ منهم كُتُبَه وثَوبَه، ويُجَدِّدُ وُضوءَهُ ويُصَلِّي، ثم يعودُ إلى مُذاكرة العلم، لا جرمَ أني أنا الحَقِيرَ لم أسمعْ في الأزهر كلامَ هذه الدنيا الدنيئة، فما زُرْتُهُ إلا تَجَرَّدْتُ من العلائقِ الدنيوية، ونِلْتُ حظوة من حالة أخرى» [٩].

وقد تعدَّدت هذه الأروقة وكَثُرَتْ عبر الأزمان والأعصار، حتى صار بالأزهر الشريف نوعان من الأروقة، أحدهما للمصريين، والآخر للوافدين، فمن أشهر أروقة المصريين: رواق الريافة لأهل ريف مصر، والبحاروة لأهل الوجه البحري، والصعايدة لأهل الوجه القبلي، والشراقوة لأهل الشرقية، وزاوية العميان، والفَشنية لأهل بني سويف، والفيومية لأهل الفيُّوم، والشنوانية لأهل المنوفية، والحنفية، والحنابلة، والعبَّاسي، ومن أروقة الوافدين: رواق الحرَمَين ويسكنه

---

(٦) انظر: شيخ الجامع الأزهر في العصر العثماني ص٥٦- ٥٧، وراجع: سجلات محكمة القسمة العسكرية، س٢٢٦ (١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م): ٧٩، ١٢٧.

(٧) هو الشيخ عثمان بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عيد العزيز بن رُشد الفُتوحي القاهري الحنبلي الشهير بابن النجار، تولى مشيخة الأزهر من سنة ١٠٤٨هـ - ١٠٦٤هـ/ ١٦٣٨- ١٦٥٣م. (انظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ٣/ ١٠٩، وشيخ الجامع الأزهر في العصر العثماني ص٣٠).

(٨) انظر: شيخ الجامع الأزهر في العصر العثماني ص٥٦- ٥٧، وراجع: سجلات محكمة الباب العالي، س١٢١، م٧٥، (١٠٥٣هـ/ ١٦٤٣م): ١٤.

(٩) سياحتنامة مصر، لأوليا شلبي، ترجمة محمد علي عوني وآخرين، ط/ دار الكتب المصرية - ٢٠٠٣م: ص٢٧٢.

طلبة مكة المشرفة وسائر جهات الحجاز بما فيها المدينة المنورة والطائف وغيرها، والبرابرة لأهل تشاد وما جاورها، والسِّنَّارية لأهل طلبة السودان وما جاوره غربا، والشَّوام، والمغاربة لأهل المغرب والجزائر وتونس وليبيا وموريتانيا، والجوهرية، وكانت هذه المدرسة إلى وقت قريب مكانا لتدريس الخطوط العربية، ورواق دكارنة صُليح لأهل إقليم بحيرة تشاد والتُّكرور وغيرها، والأكراد، والهنود، والبغاددة، والبُرنيَّة لأهل دولة برنو إقليم غرب إفريقيا، ورواق الجَبَرْت لطلبة العلم الوافدين من الصومال وإريتريا وشرق أفريقيا، ورواق اليمنية لأهل جنوب الجزيرة العربية، ورواق الأتراك للطلاب الوافدين من تركستان، ووسط آسيا وغرب آسيا، وكذلك من ألبانيا وبعض بلاد البلقان، ورواق الأفغان أو السليمانية، والرواق الجاوي لأهل إندونيسيا وما جاورها.

وكان الطالب إذا التحق بالأزهر صغيرا سلم لمن يكبره من بني جلدته، فيعلمه لغة أهل القاهرة، وشوارعها ودروبها وحاراتها، كما يعرفه قوانين الدولة وعادات وتقاليد أهلها، ويعلمه ألا يخرج عليها بحال، وأن يلتزم بحدود اللياقة واللباقة والأدب الرفيع والأخلاق الإسلامية الكريمة.

ثم يدفع به إلى كتاب رواقه أو أي كتاب من كتاتيب الأزهر، حيث يتم تحويله من لغة بلده بمعلم من بني جلدته ليعلمه اللغة العربية بالتلقين قراءة وكتابة، ثم يدخل في حفظ القرآن الكريم، ثم ينتقل إلى حفظ المتون – وهي مختصرات للعلوم التي سيدرسها – نثرية أو شعرية في العلوم العربية والإسلامية والفلسفية ... إلخ [١٠].

وكان لكل رواق شيخ هو أكبر شيوخه سنًا، وكان يتميز بالوقار وحب الطلاب له، وكان يشترط فيه أن يعمل على مصلحة الطلاب، ولا بد أن يكون واسع الاتصالات خاصة مع شيخ الأزهر، ويساعده شيخ هو وكيل الرواق، وهو الذي يحل محله عند غيابه في سفر أو خلافه، ويقوم مقامه في العمل على مصالح الرواق.

هذا .. ومن موظفي الرواق نقيب الجراية (الخبز) الذي يتولى توزيعها على الطلاب وقت حضورها من المخبز بالعدل وبالحق والمستحق.

وهناك جابي الوقف الذي يجمع ريع الوقف من أطيان وعقارات، ويسلمها لشيخ الرواق؛ لتوضع في خزينة الوقف لينفق منها على الطلاب والشيوخ ومصالح الرواق الأخرى.

وهناك ملاء الرواق، وفراش الرواق، وحارس ليلي، وآخر نهاري [١١].

ولعلَّ كثرةَ الأوقاف التي وقفها المسلمون على طلبة العلم، كانت من أهمِّ الأسباب التي جعلت الجامعَ الأزهرَ محطًا لكثير من العلماء وطلبة العلم، ويكفي أن تُطالِعَ أعداد الطلاب الذين

---

(١٠) انظر: الرحلة العلمية للطالب الإندونيسي إلى رواق الجاوة بالأزهر الشريف في القاهرة، للأستاذ الدكتور/ مجاهد توفيق الجندي الأزهري، ص٥٦٧– ٥٦٨.

(١١) انظر: أضواء جديدة على رواق الأتراك بالجامع الأزهر الشريف، للأستاذ الدكتور/ مجاهد توفيق الجندي الأزهري، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الخامس بعنوان: العرب والترك عبر العصور، بكلية الآداب – جامعة قناة السويس – مارس ٢٠١٣م: ص٨٨٤– ٨٨٥.

كانوا يتعلَّمون في الأزهر الشريف من قديم؛ لتتعرَّف على الدور الرائد لهذه القلعة الحصينة تجاه أبناء الأمة الإسلامية ورعاية أمانتهم حقَّ رعايتها.

فيسجِّل المقريزي عدد المقيمين في الجامع الأزهر وفي أروقته سنة (٨١٨هـ) للدراسة والتعلم، فقال: «لم يزل في هذا الجامع منذ بني عدّة من الفقراء يلازمون الإقامة فيه، وبلغت عدّتهم في هذه الأيام سبع مئة وخمسين رجلًا ما بين عجم وزيالعة، ومن أهل ريف مصر ومغاربة، ولكلّ طائفة رواق يعرف بهم، فلا يزال الجامع عامرًا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم الفقه والحديث والتفسير والنحو، ومجالس الوعظ وحلق الذكر، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره، وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البرّ من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى»(١٢).

وعند زيارة الرَّحَّالة التُّركي (أَوْلِيا جَلَبي) لمصر خلال منتصف القرن السابع عشر الميلادي(١٣)، في حدود (١٠٨١ - ١٠٨٩هـ) يقول عن الأزهر: «ليس في مصرَ جامعٌ له ما للأزهر من جماعة، إذ هو واقعٌ في عين فعل مصر، فهو مزدحمٌ بالناس ليلًا ونهارًا، فلا تجد فيه موضعًا للسَّجدة، يجتمع فيه اثنا عشرَ ألف طالب ليلَ نهارَ، وتطنُّ أصواتُهم كأصواتِ النَّحلِ، مما يُدهشُ الإنسانَ، وقد انهمكوا في مُباحثات علميَّة»(١٤).

ويقولُ أيضا: «وخلاصةُ القولِ: إنَّ بالأزهر اثني عشرَ ألفَ نفْس، ولا يحدثُ اضطرابٌ في مصرَ إلا وخرجَ عُلماءُ الأزهر صائلينَ، وجَوْلَتُهُمْ خَطِرَةٌ جدًا (اللهمَّ عافِنَا) ... ويُتلى في الأزهر ألفُ خَتمةٍ يوميًا ... وإنَّ الواحد منهم يختمُ القرآن في سبع ساعات ... وبداخل الأزهر هزيمٌ كهزيم الرَّعدِ ليلا ونهارا، وفيه قُضاةٌ حُكَّامٌ من المذاهب الأربعة»(١٥).

وفي سنة (١٢٩٠هـ) يسجّل علي باشا مبارك عدد طلاب الجامع الأزهر، فيقول: إنهم كانوا (٩٤٤١)، الشافعية: ٤٥٧٠، والمالكية: ٣٧١٠، والحنفية: ١١٣١، والحنابلة: ٣٠، وعدد المدرسين في المذاهب الأربعة: ٣١٤ مدرسا(١٦).

وتقول السيدة زينب بنت علي العاملي المتوفاة سنة (١٣٢٢هـ) عن عدد طلاب الجامع الأزهر في زمن تأليف كتابها (الدر المنثور) وقد طبع سنة (١٣١٢هـ): «وفيه من الطلبة ما ينيف من عشرة آلاف طالب على ما يقال، فهو أكثر مدارس الأرض طلبة وأقدمها عهدًا فيما يظن، ومنه يخرج أشهر

(١٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي ٤/٥٧.

(١٣) استقرَّ الرَّحَّالة (أوليا جلبي بن درويش محمد ظِلّي) في مصر في الفترة بين عامي ١٦٧٢- ١٦٨٠م، وكثيرا ما تردَّد على الجامع الأزهر.

(١٤) سياحتنامة مصر، لأوليا جلبي، ترجمة محمد علي عوني وآخرين، ط/ دار الكتب المصرية - ٢٠٠٣م: ص٢٧١، وشيخ الجامع الأزهر في العصر العثماني، لحسام محمد عبد المعطي، ط/ مكتبة الإسكندرية - ٢٠١٦م: ص١٦.

(١٥) سياحتنامة مصر، لأوليا جلبي، ترجمة محمد علي عوني وآخرين، ط/ دار الكتب المصرية - ٢٠٠٣م: ص٢٧٣.

(١٦) الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك ٨٨/١.

علماء العربية والفقه والأدب من المسلمين» [١٧] .

وظلت وفود الطلاب تزدحم على الجامع الأزهر من كل صَوْب وحدَب حتى ضاق الجامع بأهله، وكذا المساجد الأخرى المجاورة كمسجد الإمام الحسين، والشيخ الدردير، وغيرهما، فأمر الإمام الأكبر الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي عام ١٩٢٣م بالتزام طلاب كل إقليم بالالتحاق بالمعهد القريب منهم: كطنطا [١٨]، ودسوق [١٩]، ودمياط [٢٠]، والزقازيق [٢١]، وأسيوط [٢٢]، والإسكندرية.

وبلغ عدد طلاب الأزهر في الجامع والمعاهد السِّتة سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م: (١٠٤٤٩) طالبا. وفي عهد الإمام الشيخ محمد الأحمدي الظواهري سنة ١٩٣٠م قسمت الدراسة في الأزهر إلى ثلاث مراحل (ابتدائي، ثانوي، وألغي القسم العالي، واستبدل به ثلاث كليات هي: أصول الدين والشريعة واللغة العربية).

ثم تعددت بعد ذلك الكليات الأزهرية وانتشرت في ربوع مصر لتبُثَّ منهج الأزهر الوسطي الذي يحمي العقيدة والشريعة والحقيقة؛ ليظلَّ الأزهر المعمور كعبة العلم دون منافس، وملاذا للأمة جمعاء، حمى الله الأزهر، وحرس أبناءه.

---

(١٧) الدر المنثور في طبقات ربَّات الخدور ص٥٠١- ٥٠٢.

(١٨)وجد المعهد الأحمدي في مدينة طنطا، وقد بدأت الدراسة فيه قبل عام ٨١٤ هـ/ ١٤١٤م، وكان نظام الدراسة هو نظام الحلقات كما في الأزهر الشريف، وظل الجامع الأحمدي مدرسة حرة حتى ضم للأزهر سنة ١٨٩٥م، واستمرت الدراسة مقامة به حتى بناء المعهد الأحمدي عام ١٩١٤م. (انظر: ذاكرة الأزهر الشريف).

(١٩)كانت الدراسة في الجامع الدسوقي دراسة حرة حتى ضُم للجامع الأزهر، في ٦ محرم ١٣١٣هـ /٢٩ يونيه ١٨٩٦م، ثم وضع مجلس إدارة الأزهر نظاما للدراسة ولإدارة الجامع الدسوقي في ٢٢ محرم ١٣١٦هـ/ ١٧يونية ١٨٩٨م، وكان هذا النظام بمثابة قانون يضبط نظام الدراسة داخل الجامع الدسوقي بتحديد مواد الدراسة وأيام المسامحات (العطلات) وغير ذلك مما جاء في نظام الجامع الدسوقي. (انظر: ذاكرة الأزهر).

(٢٠) أنشئ معهد دمياط الأزهري ووُضع له قانون التدريس والامتحان سنة ١٣١٤هـ - ٣٠ مايو ١٨٩٧م، وكانت الدراسة فيه قبل ذلك دراسة حرَّة.

(٢١) أنشئ معهد الزقازيق في عهد الملك فؤاد الأول سنة ١٩٢٥م، وهو رابع معهد أزهري بالوجه البحري بعد المعهد الأحمدي بطنطا، والدسوقي بدسوق، ومعهد دمياط.

(٢٢)كان رواقا الفشنية والصعايدة بالجامع الأزهر مخصصين لطلبة الصعيد، إلا أنهم كانوا يلقون مشقة من عناء السفر ومن نفقاته إلى الجامع الأزهر، فخاطب أهالي أسيوط مشيخة الأزهر في إنشاء معهد ديني فقام وكيل الأزهر الشيخ محمد شاكر في عام ١٩١١م بزيارة للمساجد في الصعيد، ليرى ما يصلح منها لإنشاء المعاهد الدينية، وافتتح المعهد للدراسة في المحرم سنة ١٣٣٤ هـ/ أكتوبر ١٩١٥م، وقد شغل معهد أسيوط بقسميه الأولي والثانوي ستة مساجد هي: مسجد اليوسفي، ومسجد جلال الدين السيوطي، ومسجد القاضي، ومسجد الفائز، ومسجد الأفندي، والمسجد الأموي، ولما ضاقت المساجد الستة بطلابها طالب الأسيوطيون الملك أحمد فؤاد أثناء زيارته لأسيوط بإنشاء معهد ديني أزهري على غرار المعاهد التي كانت تبنى في القاهرة آنذاك، فخصص له قطعة الأرض الكائنة بمنطقة الحمراء بجوار نيل أسيوط ومساحتها أربعة أفدنة وثمانية قراريط وسهمان تقريبا لإنشاء معهد ديني أزهري وقام جلالته بوضع حجر الأساس غرة شعبان سنة١٣٤٩هـ / ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٠م، واستغرق بناؤه أربع سنوات، وافتتح للدراسة سنة ١٩٣٤م، وزاره الملك فؤاد الأول لافتتاحه رسميًا يوم ٢٤ من يناير سنة ١٩٣٩م. (انظر: ذاكرة الأزهر الشريف).